كثيراً ما نرى صوراً لجمع غفير من المسلمين وهم يحرقون مبنى صحيفة أو سفارة أو يعادون ويتوعّدون صحفي أو كاتب أو رسام أو يقاطعون بلاداً بأكملها لتعبيرهم عن استياءهم لفعل ما بدر منهم كإهانة لمقدساتهم مدّعين باستهداف مليار ونصف مسلم من خلال تلك الأفعال كرسمة كاريكاتور مثلاً، ولكن وجب قبل كل شيء تعريف ماذا يقصد المسلمون بإهانة المقدسات؟ فإهانة المقدسات عند المسلمين هي أن يقوم فرد ما باحتقار طقوسهم وشتم شخصيات دينهم والسخرية من ملابسهم ومعتقداتهم، وكل هذا أما بمقال نقدي لاذع أو رسمة كاريكاتورية ساخرة توصف مشهداً ما بشكل مستفز، أو التصريح بحقائق أو أراء تسيء لدينهم، ولكن؛ هل يكيل المسلمون في هذا الدلو بمكيالين، أم أنهم لا يسيئون في الحقيقة لأية أديان أخرى تتّبعها شعوب العالم.

المسلمون يصفون اليهود بالقردة والخنازير، ويدّعون بأن التوراة والإنجيل محرفان، وأنهما يدعوان للانحلال الأخلاقي والفجور والرذيلة، المسلمون يسخرون من عابدي البقر، ويزدرون عبدة الأوثان في الديانات الوضعية كما يسمونها، ولا يعترفون بأي مقدسات للآخرين، بل يستمتعون بإقصائها واستحقارها واستهجان المنتمين لها. أما حرية التعبير لديهم، فهي أن تتحدّث وتنتقد كل شيء إلا مقدساتهم، فحرية التعبير لا تطال دينهم، ولو حدث لأعتبر ذلك مساساً بمقدساتهم وثوابتهم، فحرية التعبير لديه تكفل له التعبير بما يشاء بمعتقدات الآخرين، أما العبث بدينه فهو أمرٌ يعدّه من قبيل السخرية والاستهداف والمؤامرة، ولهذا فلا عجب أن نرى ملايين النشرات الرسومية التي تنتقد تعاليم الإنجيل في الغرب والذي تكفّلت الدساتير بحمايتها، ونرى جمعاً غفيراً من المسلمين في الشوارع لو أن ورقة واحدة سقطت سهواً من قبل رسام غير معروف ومن قبل صحيفة لا يعرفها أحد ويتحوّل إلى أحد أكبر المشاهير في عشيّة وضحاها نتيجة لمشاعر مجروحة انتشرت في العواصم الإسلامية

تصادر الدول الإسلامية حريات الأجانب في عواصمها وتمنعهم من استخدام بعض الشوارع وتنهاهم عن لبس بعض الملابس وتحرم عليهم دخول بعض المباني وتمنعهم من الاحتفال بأعيادهم ونشر معتقداتهم وكتبهم في الأراضي الإسلامية، أوليس المسلم في الحقيقة لا يعلم أي شيء عن حقوق الإنسان إلا في جوانتانامو ولا يطالب بحرية الاعتقاد إلّا إذا عمل في بلاد الكفر طالباً من جهة عمله أن تمنحه إجازة العيد.

تتذرّع السلطات في الأوطان الإسلامية بإقصاء أي نشاط ساخر من خلال التحجّج بالخطوط الحمراء القيم والتقاليد والمقدسات والسيادة الوطنية، وبالتالي فأي نقد موجّه لها تعتبره انتقاص لتلك الرموز والمساس بهيبة وسيادة الدولة والمواطنة والمقدّس، وبالتالي فقيام الدولة بالهجوم على المنتقد من خلال تشويه صورته وأهدافه من النقد كالادعاء بأنه يخل بأن الدولة والمجتمع ويدعو للانحلال وينتهك القيم والأعراف، باستخدام مصطلحات فضفاضة ومائعة كخدش الحياء العام أو الإخلال بالنظام العام أو النيل من هيبة الدولة، أو قذف الذات الإلهية أو الإساءة للمقدسات.

وعليه فإننا لو صادقنا للحكومات العربية والاسلامية في مثل هذه التذرعات؛ فإنه على الناقد والساخر أن يقوم باستفتاء في أي موضوع يود كتابته أو رسمة يود رسمها أو مسرحية يود إخراجها من أجل التأكد من انطباعات الأفراد ورأيهم في هذا الأمر، ثم التأكد ما إذا كان هذا الموضوع يسيء له بشكل شخصي أو يجرح مقدساته ومعتقده، وعليه فأن الكاتب عليه أن يخاطب كافة الشعب فرداً فرداً قبل أي نقد، ولهذا فما دام الكاتب يجب عليه أن يراعي مشاعر الناس عند أي نقد؛ فأعتقد أن النقد يفقد فاعليّته وغير مثمر، فالمقدّس المتخبئ خلف غيره في المعركة سيظهر بمظهر العاجز عن الدفاع والذود عن نفسه، من خلال قوانين المنع والمصادرة.

إن تهمة الإساءة للمقدسات وازدراء الأديان تهمة لا وجود لها اليوم في كافة دساتير العالم الغربي سوى العالم الإسلامي، وتلك الممارسات ليست وليدة الدولة الحديثة، بل هي إرهاصات الدولة الإسلامية الخلافية، إذ قامت الخلافة الراشدة والعباسية والأموية بعدة إعدامات ومشانق ورجم وسجن وسحل للعديد من ناقدي الإسلام أو حتى من يحمل فكراً مخالفاً في التفسير أو التأويل السائد حينها.

ما من أحد يثيره تجاوز تلك الحدود الحمراء التي صنعها بنفسه أكثر من المتديّنين، ويرجع ذلك إلى النرجسية وحب الذات، فهو كالطفل المدلل الذي لا يرغب أن ينقد في شيء فهم كمثل القائل: أضع معك عهداً يجعل كل غرم عليك وكل غنم لي، وأراعي هذا العهد ما راقني وتراعيه ما راقني ، في حين أن المسلمين أنفسهم ينتقدون بعضهم نقداً ساخراً وغير موضوعي؛ فالشيعي يسخر من فتاوي السنّي كفتوى إرضاع الكبير التي أطلقها علماء الأزهر وجهاد النكاح الذي انتشرت في المنابر الإسلامية بعد الربيع العربي، ومن جهة أخرى فالسنّة يسخرون من الشيعي ومن فكرة العصمة والخمس والإمام المتخفي في السرداب والتطبير وزواج المتعة، بيد أن هذا النقد يراه المسلمون فيما بينهم، لذا لا يثير غضبهم كما لو قام يهودي بالسخرية من تعاليم دينهم، وهنا تكمن النرجسيات القاتلة

أولم يقل الله في القرآن (والله يستهزئ بهم) أوليس القرآن مليء بالأوصاف التي تصف المسيحيين واليهود بالقردة والخنازير والأنعام والحمير والكلاب، أوما قال الله على لسان محمد في القرآن أيضاً (إنما أنا بشر مثلكم)، فإن كان النبي محمّد بشر وشخصية عامة، فهل يوجد في العالم اليوم شخصية عامة ليست محل نقد أو سخرية أو تجريح، بالمقابل، هل سيخسر المسلمون شيئاً لو كان النقد مجرد نقدٍ ساخر لا هدف منه إلا التقليل والازدراء، وأما النقد الساخر فهو يصب في مصلحة المسلمين نظراً لانعدام بيئة نقدية في فضاء الإسلام، فالفكرة كفيلة بالدفاع عن نفسها، تستمد قوتها من كثرة المنتمين لها وطول صمودها، ولهذا فلا نرى من يتشنّج نظير نقدٍ طال غاندي أو صلعته أو نظارته أو ملابسه، كذلك هو الحال عند ماركس مؤسس الماركسية، فلا يعقل أن يستاء الماركسيين إذا ما سخر أحدهم من لحية ماركس، فهذا الجنون عينه.

الحقيقة أن السيل الجارف من الغضب الذي نراه في العواصم الإسلامية نتيجة رسمة ساخرة أو فيلم يسيء إلى الإسلام أو أحد رموزه ما هو إلّا انفعال وغضب زائف، فالنكتة الدينية هي أكثر النكات رواجاً واستجلاباً للضحك، والتي تنتشر عادة بين الشباب

المسلمين، ولا نرى أي انفعالات ضد من قالها، ولا نرى غضب من قبل المستمعين إليها، وهو ما يفسر زيف كل تلك الانفعالات، وهو ما يؤكد أيضاً أن تلك الشوارع الغاضبة والمخرّبة والمتوعّدة ما هي إلّا فرصة يستغلها المتشددون لتوظيفها في معركتهم ضد الفكر.

بسّام علي